المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً** ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

نسيم الحجاز من مسجد الشيخ ابن باز ، لقد توفي سماحة والدنا الشيخ العلاّمة عبد العزيز بن عبد الله بن باز – رحمه الله – وهذه الخطب على مكتبه ، مدرجة في جدول أعماله لكي يقدم لها ، وقد قُرئ عليه عدد منها ، إلا أن الأجل وافاه قبل أن يتم قراءتها ولا حول ولا قوة إلا بالله ، كنت آمل أن أصدّر هذا الجهد المتواضع بشيء من عبير علمه ، وعبق توجيهه ، فالفضل بعد الله تعالى في كل ذلك لسماحته ، فما هذه الخطب إلا شذاً من عطر علمه ، ومداد فضله وجميل نصحه ، وبديع توجيهه .

ألا إن وادي الجـــــزع أضـــــحى ترابه
من المسك كـــافـــوراً وأعـــواده رندا

ومـــا ذاك إلا أن هنداً عـــشـــيـــة
تمشت وجـــرَّت في جـــوانبـــه بردا

لقد كانت وفاته – رحمه الله – صاعقة كادت تنسف عزيمتي ، وتجتث همّتي ، وتأتي على توقدي ، ولكنني صبرت واحتسبت ، ورضيت وامتثلت ، وكفكفت دموع الأسى ، ولملمت جراح الحزن ، ورأيت أنه من أبرِّ البر أن أسير على دربه ، وأمضي على نهجه ، وأبادر بنشر عبق من آثار علمه ، وعزمت على إنفاذ كل جيش من جيوش العلم والبذل والفضل كان قد جهزه قبل وفاته ، وأقسمت أن لا أمنع الناس عقالاً كنت أؤديه لهم في حياته .

ولقد كنت آمل أن أقدم بمقدمة طويلة بين يدي هذا الكتاب أتحدث فيها عن الخطابة من حيث أهميتها ورفعة مكانتها وعظيم شأنها وقوة سلطانها ، وأبين فيها بعض القواعد المهمة والقوانين الملحة والضوابط المفيدة ، وأسرد شيئاً من عوامل النجاح وطرق التفوق وأساليب التأثير ، فرأيت أن ذلك سيعطل مسيرة الكتاب ، وسيأخذ مني حيزاً كبيراً ومساحة طويلة ، فبادرت بالنشر ، وسارعت بالطباعة ، وقررت إصدار كتاب آخر عن قريب – إن شاء الله تعالى – أضمنه ما لدي من آراء وأفكار ، وفرائد وفوائد ، ونصائح وتجارب عن الخطابة والخطباء .

أما هذه الخطب فهي جهد قليل ، وبضاعة مزجاة ، فليتصدق علينا أرباب العلم وحملة المعرفة ، ولا يدخروا نصحاً ، ولا يؤخروا توجيهاً فإنا نراهم من المحسنين .

يجب على الخطيب أن يسعى إلى التجديد والتنويع ، والتلوين والتحسين ، وأن تسري هذه الروح في خطابته ، وأن يبتعد عن الرتابة قدر الإمكان بدءاً باختيار الموضوع ، ثم تحديد العنوان ، ثم الأسلوب ، ثم الأداء ، وسوف تجد في هذا الكتاب موضوعات قد لا يخطر على البال أنها تكون مادة لخطبة الجمعة ، ولكنها وجدت قبولاً حسناً ، وأثمرت توجيهاً مباركاً ، انظر مثلاً إلى خطبة : التجديد – البحر – الغيث – الليل – الدَّيْن – طريقك إلى النجاح – العقل – القلب – أنت غني ولست فقيراً .

إن هذا الكتاب ليس خطباً للجمعة فحسب ، فكثير من موضوعاته يعتبر بحثاً متقصياً ، ومادة مستوفاة يفيد منها من كان لديه خطبة أو محاضرة أو بحث علمي ، أو مقالة أدبية ، ولذلك فإن كثيراً من موضوعاته أطول من زمن الخطبة ، ويجب اختصارها لمن أراد أن يفيد منها في خطبة جمعة .

إنني لا أدعي أن خطبي محض ابتكار ، أو أنني أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، ولكن يكفيني أنني بذلت وتعبت وحضرت واجتهدت وجمعت وقارنت واخترت وحذفت ، نعم بعض الخطب كنت أرجع إلى كثير ممن كتب في موضوعها فأستفيد من ذلك كله ، أما أن أعدو على موضوع بأسره أو خطبة بأكملها فذلك ما لم أرضه لنفسي أبداً ، وخير شاهد على هذا الكلام ما سيجده القارىء لهذه الخطب من تميز واضح ، وجهد بيّن ، وطرح فريد .

إن الخطابة بجهد الآخرين فيها مخادعة لمشاعر الخطيب أولاً ، ومخادعة للناس ثانياً ؛ لأنه يتغنى بغير عواطفه ، ويصدح بما لم تنفعل به نفسه ، وإن أداءه لها مجرد تمثيل ، وليست النائحة كالثكلى . إن ما كان من القلب يصل إلى القلب ، وما كان من اللسان فلن يجاوز الآذان .

لقد صدحت بعددٍ غير قليل من هذه الخطب بحضور سماحة الوالد الأجل ، والعالم الأمثل – رحمه الله – ولقد كان يُسرّ بخطبي كثيراً ، ولا أنسى مقالته لي بعد عدة خطب : « خطبة عظيمة ، خطبة عظيمة ، نفع الله بك ، بارك الله فيك ، بارك الله فيك » كم كان يسعدني رضاه عني ، كم كان يسرني سروره بخطبي، كانت عباراته المشجعة وقوداً حيّاً يدفعني لعطاءٍ أجمل وأداء أفضل .

كان يُطلب منه أن يعقب أو يوجه كلمة أحياناً بعد صلاة الجمعة ، فكان يعتذر – رحمه الله – ويقول ما على خطبة الشيخ ناصر مزيد ، وذلك محض تواضع منه ، أضف إلى ذلك أنه كان لا يرى إلقاء المواعظ بعد خطبة الجمعة ما لم تدع الحاجة إلى ذلك ، غفر الله له ورحمه رحمة واسعة وجمعنا به في جنات النعيم ، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د/ ناصر بن مسفر الزهراني
جامع سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز
مكة المكرمة
في ١ /٩ / ١٤٢٠ هـ

* إن من البيان لسحرا *

كلما أجلت طرفك في كلام بديع ، وأسلوب رفيع ، زاد إيمانك بهذا الأثر النبوي البديع : «**إن من البيان لسحراً**» . [رواه البخاري]

إن الألفاظ العاطرة ، والمعاني الآسرة ، والجمل المنسابة ، والتراكيب الجذّابة المجللة برداء الإخلاص ، الممزوجة بعبير الصدق ، تملك لبّك ، وتهز إحساسك ، وتوقظ مشاعرك .

من الكلام ما يهز القلب هزّاً ، ويرجه رجّاً ، ويجعل قواه هباءً منبثّاً .

ومن الكلام ما يكون كالطيف الهادىء ، والظل الوارف ، يستمتع المرء بجماله ، ويتفيأ ظلاله . ومنه ما يكون عذباً فراتاً ، هنيئاً مريئاً ، سُقْيا رحمة لا سقيا عذاب.

ومن الكلام ما يكون شراباً سائغاً ، وشهداً مذاباً . إن بعض الناس أوحى ربك إليهم أن يتخذوا من المعاني الحسان بيوتاً ، ومن الألفاظ العذاب قوتاً ، ومن العلم ومما يعرفون ، ثم يقطفون من أحلى الثمرات ، فيخرج من أفواههم بيان مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، وفيه تذكرة لقوم يتفكرون .

بيان يلامس الأسماع فتطرب ، ويداعب الأفئدة فترقص ، ويطرق القلوب فتنادي هيت لك .

إن الكلام الجميل الصادق لروعة معدنه ، ونقاء مصدره ، وعذوبة

مشربه ، يبقى خالداً على مر الدهور ، وتعاقب العصور ، بل كلما تقدم به الزمان زاد أريجه ، وحَسُن عبقه ، وعظمت قيمته ، تتضمخ به القلوب الطاهرة ، وتتطيب منه الأنفس الطيبة .

ألم تر أني كلما زرت زينباً
وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

إن الخطيب الصادق إذا ضرب بحر المعرفة بعصا الإخلاص ، انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وإذا أقبل فراعنة الشرك وجنود الرياء ابتلعتهم أمواج الصدق ، وبددتهم فلول الذّكر ، فكانوا من الخاسرين ، وإذا ألقى سحرةُ المبادىء حبالَهَم وعصيّهم ، يُلقي عليهم عصا التوحيد واليقين فإذا هي تلقف ما يأفكون .

الخطيب الناجح هو الذي لديه إلمام بقوانين الخطابة ، وأصول الكتابة، وفنون الإلقاء ، وجمال الأداء وحسن اختيار الأسلوب وانتقاء الكلمات ، وجودة التحضير ، والانفعال في مواطن الانفعال ، والهدوء في مواطن الهدوء ، ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا** ﴾ .

الخطيب الناجح هو الذي يعيش الموضوع وينفعل به ويمتزج بدمائه ، يجب أن تكون الخطبة كالقصيدة من حيث وجوب الانفعال بها ، وأن تنبع من القلب ، وينطق بها الوجدان ، وتنفعل بها المشاعر ، وإلا جاءت باهتة باردة ميتة.

الخطيب الناجح يحرص على الإيجاز قدر الإمكان ، فكلما طالت

الخطبة ، كلما ضج بها الناس ، وأنسى آخرُها أولَها ، وبدأ الملل على النفوس ، والقلق على المصلين ، فمهما أوتي الخطيب من قوة ، وأعطي من أسلوب ، يجب أن يراعي عامل الزمن اقتداءً بالنبي ﷺ وهو أفصح الخلق ، وأعظم من خطب ، وأجمل من نطق ، وأصدق من تكلم ، وقد قال ﷺ : «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنّةٌ من فقهه ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان لسحراً» . [اخرجه احمد ومسلم]

الخطيب الناجح يبتعد عن مصادمة الناس بأخطائهم ، ومهاجمتهم في مخالفاتهم، بل يجب معالجة الأخطاء بأسلوب غير مباشر ، وتصحيح التصورات بطريقة علمية هادئة هادفة ناصحة ، دون هجوم أو تجريح ، ودون توتر أو تعنيف «ما كان الرفق في شيء إلا زانه» . [صحيح الجامع]

قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ .
[النحل : ١٢٥]

الخطيب الناجح يجب أن يكون قلباً نابضاً ، وفكراً نيّراً ، وضميراً متوقداً ، وإحساساً مرهفاً ، يعرف مكانته ، ويقدر رسالته ، ويقوم بواجبه، ويؤمن بمسئوليته ،ويؤدي أمانته .

قال تعالى : ﴿ **لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة : ٦٣].

الخطيب المؤمن عقل مدبّر ، وقلب واعٍ ، ولسان ناطق ، وبيان صادق

ويقين واثق ، يستلهم الوحي ، ويتضلع من العلم ، ويسيح في بستان السنة ، ويغوص في أعماق البحور ، فيأتي بالدرر ، ويقبل باللؤلؤ، ويجود بالمرجان ، ثم يتوج ذلك كله بإخلاص القصد ، وصفاء النية ، وسلامة الطوية .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٨].

الخطيب الناجح لا يقع فيما يحذر الناس منه ، ويخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، فالدعوة بالقدوة أصدق من أي موعظة ، وأجمل من أجمل خطبة ، ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود : ٨٨].

الخطيب الناجح يبتعد عن الأمور التي تضر ولا تنفع ، وتسيء ولا تحسن ، وتهدم ولا تصلح ، فكثير من الأمور ليس المنبر مجالها ، ولا الخطابة ميدانها ، ويبتعد عن ذكر الأشخاص ، والحديث عن الأفراد بل يمضي على نهج : « ما بَالُ أقوام . . » . [صحيح الجامع : ٢/٩٧٦]

الخطيب الناجح هو الذي يشدّ الأذهان بحسن عرضه ، ويهز القلوب بجميل لفظه ، تعيش معه القلوب ، وتتطلع إليه الأفئدة ، وتشخص إليه الأبصار .

الخطيب الناجح هو الذي يعيش في أعماق الناس ، ويشعر بشعورهم ، يتلمس آمالهم وآلامهم ، يناقش القضايا الحية ، والموضوعات

المعاصرة ، ويضرب على الأوتار الحساسة ، يطرح القضية ويوجد الحل ، ويبين الداء ويصف الدواء .

الخطيب الناجح يتحرى حسن اختيار الموضوع ، والتنويع في الطرح والتجديد في العرض ، والبعد عن الرتابة المملة ، والتقليدية الباهتة .

أنت مع الخطيب الناجح تحيى نفسك ، ويصحو ضميرك ، ويزكو وجدانك . إنك تتنقل معه في رياض نضرة ، وبساتين أنيقة ، وحدائق غنّاء ، تارة تجدك أمام هزة عنيفة ، وصيحة منذرة ، وموعظة بليغة ، تزلزل الكيان ، وتهز الوجدان ، فتنزل على القلب بسوط لاذع ، وصارم قاطع ، ووعيد رادع .

وتارة تجدك أمام طبيب حاذق ، ومداوٍ ماهر ، ووصيف حكيم ، يسقيك جرعة من رضاب البيان فتقتل الداء ، وتبعث الشفاء ، وتفيد الصفاء .

وتارة تجدك أمام روحاني عريق ، ورباني رفيق ، وخاشع رقيق ، يُظّلك بسحاب الورع ، ويهمي عليك بغيث التقوى ، ويجلّك برداء الخشوع ، ويجملك بلباس الخضوع ، ويروي غلتك بزلال الوعظ ، ويذهب ما في قلبك بذكر الحبيب ، ووصف الجميل ، ولقاء الجليل ، فإذا بجوى الحب في القلب يستعر ، وفُتحت مآقي العيون بماءٍ منهمر ، وفُجّرت النفس عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِر .

وتارة تجدك أمام مُحبٍّ واله ، وعاشق مدنف ، ومغرمٍ متيم ، قد براه

الحب ، وتيّمه الهوى ، وشغف بمعبوده حباً ، تاه فكره ، وذهب لُبُّه ، وطاش عقله ، وتحرقت وجناته ، وفاضت عبراته ، وعظمت حسراته ، فيروي لك طرفاً من قصة الحب ، وبعضاً من أحاديث الغرام ، فينساب دفئها إلى القلوب، ويتسلل عبيرها إلى النفوس ، فتذكي نار الحب ، وتشعل حُرق الغرام ، وتُؤجج لواعج العشق .

إذا كان حب الهائمين من الورى
بليلى وسعدى يسلب اللب والعقلا
فماذا عسى أن يصنع الهائم الذي
سرى قلبه شوقاً إلى الملأ الأعلى

وتارة تجدك أمام ربٍّ للبيان ، وإمامٍ للكلام ، ومالك لزمام اللغة ، ونافث لبديع الشعر ، وكأن تحت لسانه هاروت ينفث فيه سحراً .

وكلامه السحر الحلال لَوَ انَّه
لم يجن قتل المسلم المتحرِّزِ
إن طال لم يُملل وإن أوجزته
ودّ المحدَّث أنه لم يوجَزِ

إن المنبر اليوم هو قناة المسلمين الوحيدة ، وزاويتهم الفريدة التي يُبث من خلالها العلم وينشر الهدى ويسدى النصح وتذاع الفضيلة وتحارب الرذيلة ، وإن الخطيب الناجح يكون شأنه مع قنوات التضليل ومنابر التدجيل كشأن عصا موسى مع حبال السحرة وعصيّهم ، يرسل

نفحات الحق وكلمات اليقين وعبارات الإيمان ومواعظ القرآن ، فإذا هي تلقف ما يأفكون ، وتدمر ما يشيدون ، وتنسف ما يصنعون .

إن العاقل الذي يتأمل ما وصلت إليه البشرية اليوم ليحترق أسىً ، ويذوب حياءً ، ويكتوي لوعةً ، ويلتهب حرقة ، ويرتعد خوفاً ، ويرتجف فرقاً ، حق للقلوب المؤمنة أن تتقطع ألماً ، وآن للأنفس الطاهرة أن تتمزق ندماً ، وحان للأعين الصادقة أن تبكي دماً ، فكيف يهنأ المؤمن زاداً ، وكيف يسيغ شراباً ، ويتبسم ضاحكاً ، ويمضي سالياً ، ويعيش هانئاً ، وينام قريراً وهو يرى ما يُمِضّ الأجسام ، ويمزق الأفئدة ، ويبدد القلوب من اعتداءٍ على الحرمات ، وانغماس في الشهوات ، وتحدٍّ لرب الأرض والسماوات ، ومجاهرة بالقبائح ، وإعلانٍ بالفضائح؟ لقد كان ﷺ يغضب غضباً شديداً إذا انتهكت حرمة من حرمات الله ، فكيف ظنك به لو اطلع على هذا الانتهاك المرير ، والاعتداء الخطير الذي لم تعد تراعى فيه حرمة ، أو يحترم شرع ، أو يستحيى من رب – إلا من رحم الله – .

إن أفضل واعظٍ كتاب الله ، وأصدق حديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ وإن هذه القطرات من ذلك الغيث الهنيء ، وهذه القنوات من تلك البحور الزاخرة ، والأنهار الرقراقة ، وهذه الومضات من ذلك النور الأتم ، والهدي الأكمل .

وإن هنالك من البشر من لا تهزه كلمة ، ولا تنفعه موعظة ، ولا توقظه ذكرى ، ولا يؤثر فيه بيان ، ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء لتأتيهم بآية بينة ، وأدلة قاطعة ، فإنهم لا يسمعون : ﴿إِنَّمَا

يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ .

يا أيها المؤمن .. هذا هتاف الإيمان ، ونداء الحق ، فاستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب من القلب ، حبيب إلى النفس . استمع قبل أن تسمع الصيحة بالحق فلا قيمة للتوبة ، ولا فرصة للعودة ، ولا أمل في الرجعة ، فلو ناديت يومئذٍ ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ لم يسمع نداؤك ، ولم يُقبل رجاؤك ، وسمعت النداء الحق : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون : ٩٩ - ١٠٤].